# الفصل التاسع

# الإسلام والغرب نظرة تاريخية وحضارية

هناك تساؤلات تفرض نفسها ونحن نسهم في هذه الندوة العلمية المباركة الإسلام والتفاعل الحضاري ضداً بالإسلام والتصارع الحضاري من بينها: - إن عنوان الندوة منطلق من اللاشعور العربي الإسلامي عن الغرب - جغرافية وسياسية - هو وليس غيره يمثّل الآخر أو الضدّ من الإسلام عامة والعرب خاصة وبصورة مطلقة؟ هل أنه مفردة مرتبطة بنتائج ما صار مألوفاً ومعروفاً لدينا بل ما صار مصوّراً لنا وكأنه مارد مخيف وواقع مفروض لا محال علينا ومن الصعوبة بمكان بالنسبة إلى المسلمين والعرب والدول النامية مواجهته ألا وهو مارد العولمة الرأسمالية الغربية المكتسح والماحق لكل ما يجده في طريق توسعه وشموليته؟ أمّ أنه نتيجة علاقة تاريخية متوترة في الغالب أو إيجابية أحياناً، بمعنى أدق هل أن الغرب هو معادلة عدوّ لدود للعرب والمسلمين وإن علينا اختراقه سياسياً أو حضارياً أو ما شئنا ذلك أو أنه العدوّ أو الآخر الذي نخاف منه ونخشى من اختراقه لنسيج مجتمعاتنا وفي الأوجه نفسها؟ أمّ هو نتيجة لمفهوم التصادم والتصارع بين ما تبقّى حتى وقتنا هذا من حضارات تابعة لأديان جامعة إسلامية أو مسيحية أو كنفوشستية وهي عند السير آرنولد توينبي[1] خمس حضارات، وأن الحضارة العربية الإسلامية هي واحدة من هذه الحضارات وهي مهمة في الوقت نفسه لكنها قد انكفأت إلى مرحلة الفراغ الحضاري لتمثّل آخر مرحلة من مراحل نشوء ونمو وانهيار الحضارات وهي مرحلة تدهورها، في الوقت الذي انتقلت فيه الحضارة الغربية من مرحلة الإضطرابات او هي المرحلة - حسب رأي البروفسور توينبي - المنذرة بالتدهور إلى مرحلة الدولة الإمبراطورية العالمية. وأقصد حسب المفهوم الحضاري تمثّل أيضاً المرحلة التي تسبق الحضارة العربية الإسلامية بدور

(١) توينبي، السير آرنولد، مختصر دراسة التاريخ ترجمة فؤاد محمد شبل، القاهرة، ١٩٦٠، ط١، ج١، ص ٣٨-٣٩ (المجتمعات المتحجرة) ص ٥٧.

Toynbee, Arnold: A study fo History, Abridgement by Somervell, vol.3 chapter 6.

خوري، منح، التاريخ الحضاري عند توينبي، بيروت، ١٩٦٠، ص ١٠٨-١١٠.

صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، الاسكندرية، ص ٢٦٥-٢٦٦.

واحد ضمن مرحلة التدهور؟ إما أنه شعور بعقدة نقص أو ما شئنا توصيفه من وجود عرب مسلمين (المقصود هنا أمة وحضارة) كانوا في الذهنية الماضوية بناة وصنّاع حضارة أصيلة ومؤثّرة فعلاً بالعقلية الغربية المتخلفة أيّما تأثير، غير أنهم تراجعوا بسرعة إلى الوراء الى نقطة الصفر أو الى الحدّ الأدنى من الحركة والفاعلية وبين غرب وعقلية غربية قد تألقت وهي في تألق يومياً عبر إبداعاتها التكنولوجية المادية وعبر معرفتها التقنية المذهلة حتى أن مؤسس شركة سان مايكرو سستم Sun Microsystem أعلن في تصريح له مفزع في مجلة Wired المتخصّصة بالثورة المعلوماتية وهو يتوقع الآتي: - سيواجه الإنسان حال أقرب ما تكون إلى الإبادة خلال جيلين إذا ما استمر الخط البياني لتطوير ذكاء الكومبيوتر والتكنولوجيا العضوية على النحو الحالي اليوم[١].

إذن فتحول الغرب من غرب العصور الوسطى ـ وهو غرب جاهل متخلف ـ إلى حال مغايرة إلى غرب مؤثّر في العالم عامّة وفي العالم العربي الإسلامي خاصّة بعد أن كان هذا العالم ولعدّة قرون متأثرا ومقلداً وإلى حدّ بعيد ناسخاً لحضارته وإبداعاته العلمية ومؤلفاته في شتى الحقول المعرفية؛ آخذين بنظر الإعتبار التوافق مع المبدأ القائل بأن التقدّم المادي والتكنولوجي فحسب إنّما هو مسلك حضاري خدّاع ومضلل وأحياناً منذر بالخطورة، إذ يحتمل جداً أن يقود إلى الضد إن لم يرافقه ارتقاء روحي وفكري وإنساني؟ فهذه المجموعة الصغيرة والملحّة من التساؤلات والإرتباكات وجدتها حيوية جداً في عنوان هذه الندوة المباركة. أقول إننا في حقيقة الأمر نفكر دوماً في اللاشعور في حال حرب دائمية مع الضدّ منّا وهو أي الضدّ واقعياً الغرب. غير أننا إذا ما حفرنا في التاريخ نجد أنفسنا أمام حال قد تكون صحيحة وواقعية لأن العقلية العربية وأقصد ما قبل ظهور الإسلام كانت بخلاف ذلك تحمل في طياتها إنطباعات حضارية ومتجاوبة إن لم تكن إيجابية ومتعاطفة مع الغرب الهيليني واليوناني والروماني أكثر بوضوح من تجاوبها أو تفاعلها مع العقلية الشرقية ـ وأقصد بالشرق هنا الشرق الفارسي وغير الفارسي ـ لذلك ونتيجة لهذا الموقف المتجاوب والإيجابي نرى الأثر الواضح للحضارة الأغريقية ـ الهيلينية ـ الإيجية ـ وغيرها من حضارات البحر متوسطية التي رافقت وانبثقت في امتدادات الإمبراطورية الإسكندرية جغرافياً

---

(١) السمّاك، محمد، "العولمة وآثارها على الخصوصيات الثقافية"، في مجلة الإجتهاد، بيروت، ٢٠٠١-٢٠٠٢، العددان ٥٢-٥٣، ص ٨٧.

وعسكرياً لم تشهد تعرجات سياسية خطيرة كالتي شهدتها العلاقات السياسية مع الشرق؛ بدليل تلك السعة الجغرافية التي وصل إليها الاسكندر الكبير بنفسه مباشرة أو عن طريق أدميراله البحري المعروف نيرخوس الذي وصلت حملته العسكرية حتى جزيرة سيلان أو ربما أبعد من ذلك وعودته ظافراً دون أن يواجه أسطوله البحري عقبات كأداء بحسب ما رواه لنا التاريخ والمؤرخون اليونان المرافقون لهذه الحملات العسكرية.وبدليل أن الحضارة الهيلينية ـ مع وجود المؤثر الشرقي فيها الهيلينستي ـ قد أثرت تأثيرات كثيرة في الفكر والسياسة والإدارة والعمران.

مع ذلك فقد بقي أمر مهم جداً لابدّ من ذكره هنا ألا وهو هل نجحت إمبراطورية الإسكندر العسكرية ـ السياسية ـ الإقتصادية في تحقيق هيمنة حضارية؟ بمعنى هل أصبحت المنطقة العربية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية وغربي الفرات حتى حوض الخليج نسخة مكرّرة للحضارة الإغريقية؟ الجواب كلا، بدليل إنبثاق عدّة إستجابات محلية نابعة من الذات (الأنا) القومي أو الوطني أو الحضاري أو ما شئنا توصيفه، ومنها استجابة اليهود المكابيين في مسألة التوحيد مع أنها محاولة فشلت بالضربة اليونانية ـ الرومانية المميتة، ثم أعقبتها إستجابة مسيحية هي المسيحية الشرقية النسطورية واليعقوبية (المينوفستية) لكن هذه المحاولة أيضاً قد تشرذمت وفشلت، وأخيراً الإستجابة الإسلامية الكبيرة التي حقّقت نجاحاً رائعاً في الردّ على الحضارة الغربية الهيلينية فردّتها على أعقابها باتجاه غرب البحر المتوسط لتحلّ محلها حضارة محلية عربية إسلامية. أقصد من ذلك بإن ظاهرة الإمبراطورية العسكرية ـ السياسية ـ الإقتصادية في التاريخ لم تجد التربة الملائمة لها، وأن سيطرتها على أي بقعة من الأرض لا يفهم منه أنها أفلحت في عظمتها وفي تحقيق هدفها في اختراق ثقافي عالمي. ويحتمل أن تكون هذه المعادلة والفرضية صحيحة في بعض الجوانب إلا أننا نستطيع القول بأنه اختراق ـ إن صحّ ـ سطحيّ يمسّ القشرة الظاهرية البرانية للبنية الثقافية المرتكزة في الشرق وهذا يتمثّل بالأفلاطونية المحدثة التي تمثّلت بافلوطين الفيلسوف المصري وبتلميذه فرفوريوس الصوري (نسبة الى مدينة صور) وكليمان المصري ونظير أيضاً المسيحية الشرقية كبديل للمسيحية الغربية التي سعى إلى إدخالها بولس الرسول البارز في الكاثوليكية.

عودة مرّة أخرى إلى النقطة السابقة التي أشرنا إليها وهي أن العرب المسلمين كانوا ينظرون بل يتعايشون مع عقلية الحوار مع الغرب أكثر وأوضح من نظرتهم بمثل هذا

المعيار ـ الحوار ـ مع الشرق. وفي الذهن عدّة تجارب تاريخية موثوقة حول ذلك منها :-

١- الموقف التاريخي للرسول الكريم من الغساسنة النصارى، إذ وجّه إليهم أربعة كتب يعلن فيها دعوته إيّاهم الدخول في الإسلام منها كتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني وآخر إلى كعب بن مالك ملك غسّان ثم الآخر إلى جبلة بن الأيهم الغسّاني، وآخر إلى بني ثعلبة بن عامر يدعوهم إلى الإسلام[١]. ولو تفحصّنا سمات الخطاب الرسولي نجده إيجابياً وحضارياً وليس استعلائياً، ففي الكتاب إلى الحارث الغسّاني جاء النصّ :-

• بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر: سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله وصدّق فإني أدعوك إلى أن تؤمّن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك)[٢].

وعقد الرسول مع عدد من الأساقّفة معاهدات كالمعاهدة مع أسقف أيّلة ومع أهل جرباء وإذرح ومع أهل مقنّا ومع بني ضبّة ومع فروة بن عمرو النصراني عامل معان. وهنا أيضاً يأتي خطاب هذه المعاهدات معلنا بوضوح عن المظهر الحواري المسالم لا المتصادم. فنصّ معاهدته مع أهل أيّلة الميناء هو:-

• بسم الله الرحمن الرحيم

هذه أمنةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليحّنه ـ يوحنا ـ بن رؤبة وأهل أيّلة. سفنهم وسيارتهم في البرّ والبحّر لهم ذمّة الله وذمّة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه

---

(1) Toynbee, Op. cit, vol. 1, part 3 chapter6, (The virtues of adversity p.208).

صبحي، المصدر السابق، ص ٢٦٦-٢٦٨.

(٢) الطبري، أبو جعفر، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر دار المعارف، ج٢، ص ٦٤٤.

أبن سعد، الطبقات الكبرى، ص ١٧-١٨.

طيبٌ لمن أخذه من الناس وأنه لا يحلّ أن يُمنعوا ماء يريدونه، ولا طريقاً يريدونه من برّ أو بحْر.

هذا كتاب جهيم بن الصلْت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله[1].

وفي معاهدته مع أهل إذرح جاء:-

- بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ من محمد النبي لأهل إذرح، إنهم آمنون بأمان الله ومحمد، وأنّ عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين. وهم آمنون حتى يُحدث إليهم محمد قبل خروجه[2].

هذه بضعة نماذج من علاقة المسلمين مع المسيحيين الذين يمثّلون الآخر الديني والمذهبي تنطق بصراحة وشفافيّة عن فلسفة الرسول والمسلمين في علاقاتهم وحواراتهم مع الذين لم يدخلوا الإسلام. وفي المثال الآتي صورة حوارية أخرى مع الغرب ـ الروم ـ ففي كتاب له إلى أسقف الروم (ضغاطر) جاء:-

إلى ضغاطر الأسقف

سلام على من آمن. أما على إثر ذلك، فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها على مريم الزكية. وإني أؤمن بالله وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربّهم، لا نفرّق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون والسلام على من أتّبع الهدى[3].

---

(١) الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٥٢.

حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة ١٩٥٦، ط٢، ص ٦٦٣.

(٢) أبن سعد، المصدر السابق، م١، قسم ٢، ص ٣٧.

حميد الله، المصدر السابق، ص ٥٤-٥٥.

(٣) أبن سعد، المصدر نفسه، م١، قسم ٢، ص ٣٧.

حميد الله، المصدر نفسه، ص ٥٤-٥٥، ٥٥-٥٦.

فالرسول الكريم محمد قد اعترف بجلاء بالموقف من السيد المسيح ومن الرسل والأنبياء، ولم يفرض على أسقف الروم شرطاً إستكبارياً واستعلائياً إنّما لا نفرق بين أحد منهم فقط، ونحن لله عز وجل مسلمون.

فالموقف التاريخي لا شك في انه يظهر علاقة ودّية وأخوية بحدود العناصر القانونية السياسية في العلاقات مع الآخر القريب والبعيد.

٢- الحوارية الإيجابية المعتمدة على كتاب الله عز وجل التي عبّرت عنه الآية الكريمة الواردة في سورة الروم وهي:-

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

والتفسير التاريخي لأبعاد هذه الآية الكريمة أن الفرس الساسانيين قد انتصروا على الروم (البيزنطيين) في إحدى المعارك التي وقعت قبل هجرة النبي بأعوام الأمر الذي أدّى بالمشركين ـ مشركي مكّة ـ إلى ان يفرحوا ضدّا برسول الله وقالوا:-

الذين ليس لديهم كتاب قد غلبوا الذين لديهم كتاب، وراحوا يفتخرون على المسلمين بذلك. وواقع الحال فإن قلوب المسلمين وحبّهم في أن يظهر الروم وينتصرون على الفرس لأنهم أصحاب كتاب ـ الإنجيل ـ فتحدّثوا بهذا الأمر فيما بينهم، وتقول الرواية إن أبا بكر قد نقل حديثهم وحزنهم إلى نبي الأمة فقال: أما أنهم سيغلبون. فأوصل أبو بكر قول النبي إلى القريشيين فاشترطوا أن يجعل بينهم أجلاً لما ذكره الرسول فجعلها خمس سنين، فأعادوا القول إلى الرسول عن عدم تحقّق ذلك فأجاب ألا جعلته أراه قال دون العشر فظهر وانتصر الروم بعد ذلك (فالبضع هنا من ثلاثة إلى عشرة)[2].

إن الأمثلة المذكرة آنفا تؤكد أن هناك تجاوباً ـ روحياً ـ دينياً ـ، ولعله حضارياً بين المسلمين والغرب على الرغم مما كان سائداً من عداء سياسي وتوتّر عسكري في مدن

---

(١) سورة الروم، آية ٢-٤.

(٢) الطبري، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٤٦-٦٤٧.

حميد الله: المصدر نفسه، ص ٥٢.

العواصم والثغور وعلى طول الخط البري ـ البحري المتوسطي ـ وكذلك فيما واجهه العرب والمسلمون الذين كانوا يقطنون بلاد الشام من إذى، وعلى الرغم من العلاقات العسكرية بين الروم والمسلمين منذ معركة مؤتة وصعوداً حتى عمليات الفتوح الكبرى.

في مقابل هذا الحدث المعزّز بالآية الكريمة، كان هناك توتّر وربما استياء؛ وإلى درجة ما بغض بين العرب والشرق بما فيه الشرق الساساني. ففي قول منسوب الى رسول الله بشأن معركة ذي قار؛ إنه حينما وصلته أخبار الهزيمة التي حلّت بجيوش كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان من قبل القبائل العربية كقبائل ربيعة وبكر بن وائل. وحسب روايات لعدد محدود جدا من المؤرخين إن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال بهذه المناسبة في انتصار القبائل في معركة ذي قار) (هذا أول يوم إنتصف العرب من العجم وبيّ (وفي رأي آخر وبه أي بذي قار) نصروا) وهو حديث ضعيف لم يذكر في كتب الصحاح. وكلّ ما أقصده في الإشارة اليه أن هناك نفسا عند رواة الأحاديث من الصراع مع الفرس[1]. وفوق ذلك فالمؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري قد استعمل تعبيراً يتماهى والفكرة التي سبق طرحها في العنوانة التي عنوّن فيها معركة ذي قار إذ أبرز الآتي :-

((ذكر الخبر عن الأسباب التي حدثت عند إرادة الله إزالة ملك فارس عن أهل فارس ووطأتها العرب بما أكرمهم به بنبيه محمد من النبوة والخلافة والملك والسلطان في أيام كسرى أبرويز)[2].

فالمسألة ليست بحاجة إلى توضيح بأن مقولة الرسول الكريم وتوضيح الطبري في الموقف إزاء الساسانيين كلّ ذلك على الضدّ تماما من الموقف إزاء الروم والمسيحيين.

٣- ويضاف إلى ما قد سبق ذكره الحال الآتية :- إذا ما تفحصنا الكتب التي وجّهها رسول الله مع وفوده ورسله (وكان ذلك تاريخياً وعلى وجّه التحديد بعد صلح الحديبية عام ٦ هجرية)[3] عند نجاح الدعوة الإسلامية إلى آباطرة ملوك دول الجوار مع الدولة

---

(١) تفسير زبدة التفسير من فتح القدير، مختصر تفسير الشوكاني، ١٩٨٥، ط١، ص ٥٣-٥٣١.

(٢) الطبري، المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٣.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٣.

العربية الإسلامية لوجدنا حال اللاشعور في العلاقات الإيجابية والمتجاوبة بين المسلمين والغرب من جهة ضدّاً بالحال اللا إيجابية والعدائية بين العرب والشرق من جهة أخرى. فيذكر المؤرخون أن الرسول بعث الرسل في شهر ذي الحجة من سنة ٦ هجرية وكانوا ستة رسل هم:-

١. دحيّة بن خليفة الكلبي بعثه بكتاب إلى قيصر الروم.

٢. عبد الله بن حذافة السهمي بعثه إلى كسرى.

٣. عمرو بن أمية الضمري بعثه إلى النجاشي.

٤. حاطب بن أبي بلتعة بعثه إلى مقوقس مصر.

٥. شجاع بن وهب الأسدي أرسله إلى الحارث الغسّاني.

٦. سليط بن عمرو العامري أرسله إلى هوذة بن علي الحنفي شيخ اليمامة[١].

ويلاحظ هنا أن الرسول قد بعث أربعة من الرسل الستة وهم يحملون كتباً إلى دول وتكوينات سياسية وقبلية وإمارات نصرانية المذهب وبعث مبعوثاً واحداً إلى الشرق إلى كسرى الشاهنشاه الساساني.

والأكثر ملاحظة وأهمية يكمن في ذلك التجاوب الحضاري (الروحي) في كتابه إلى قيصر عظيم الروم وإلى النجاشي في الحبشة وإلى مقوقس القبط في مصر. إذ أوصى رسله هؤلاء بوصية مفادها ((إني بعثته رحمة وكافة ولا تختلفوا عليّ كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم)) وهي وصية تظهر أهمية دينية وإنسانية.

نماذج من هذه الكتب:

أ ـ كتاب النبي إلى هرقل عظيم الروم ـ البيزنطيين ـ

• بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم.

---

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٨٨.

سلام على من اتّبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك برعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن تولّيت فعليك إثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون" المقصود بالأريسيين من الأريس الفلاح، أي عامة أهل مملكته[1].

• جواب قيصر الروم

إلى أحمد رسول الله الذي بشّر به عيسى، من قيصر ملك الروم. إنه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله نجدك عندنا في الإنجيل بشّرنا بك عيسى بن مريم، وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك[2].

ب ـ نموذج ٢

رسالة الرسول إلى النجاشي ملك الحبشة.

• بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة. سلم أنت، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن، أشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتّبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله.

والسلام على من اتّبع الهدى"[3].

---

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٤٤.

(٢) حميد الله، المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، تحقيق هوتسما، ج٢، ص ٨٤.
الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ٦٥٠-٦٥٣.

• جواب النجاشي

• بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر.

سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته. الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام، أما بعد:

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فوربّ السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت تغروقا. إنه كما قلت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرّبنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدّقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك واصحابه وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر فإني لا أملك إلّا نفسي وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله. فإني أشهد أن ما تقول حقّ.

والسلام عليك يا رسول الله[١].

ج ـ أنموذج من الموازنة بين الكتب للشرق والكتب للغرب.

فقد وجه الرسول الكريم مبعوثه عبد الله بن حذاقة السهمي إلى كسرى أبرويز حاملاً كتابه الذي جاء فيه:

• بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس

سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله، وإني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيّاً، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس[٢].

فكان جواب كسرى أن مزق الكتاب. فردّ رسول الله على عمله هذا بقوله "مُزّق

---

(١) الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٥٢.
حميد الله، المصدر نفسه، ص ٤٦-٤٧.

(٢) الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٥٢-٦٥٣.

ملكه". وفي رواية أخرى أن كسرى قال لمبعوث الرسول بعد أن مزّق الكتاب "يكتب إليّ وهو عبدي)[1].

في موضوع الإسلام والغرب هناك مسألة بالغة الأهمية ويترتّب عليها نتائج تاريخية ـ حضارية بعيدة المدى. فالعرب وبعد ظهور الإسلام ونجاحاته في أنحاء الجزيرة العربية انطلقوا إلى نشر الإسلام خارج جغرافية وحدود الجزيرة وإلى دول الجوار أولاً لفتح وتحرير المناطق التي ظلت تحت سيادة وسيطرة كل من القوتين العظيمتين آنذاك الفرس (الشرق) والروم البيزنطيين (الغرب). وأن نتائج معارك المسلمين الكبرى في جلولاء ونهاوند على الجهة الشرقية قد حقّقت إنتصارات مذهلة حين نعلم أن المدن والأقاليم الشرقية بدأت تتهاوى وبسرعة فائقة أمام تقدم الجيوش الإسلامية وبمدة قصيرة إذ بدأت هذه العمليات العسكرية المنظمة بحدود سنة ٣٠ هجرية / ٦٥٠م لتنطلق في مختلف الإتجاهات من الرقعة الجغرافية الواسعة جداً التي شملت أعماق بلاد فارس وسجستان وكرمان ومكران والهند والسند وخراسان وبلاد ما وراء النهر وإقليم الجبال والديلم وإذربيجان وأرمينية، بمعنى أن بلاد المشرق عامة قد أصبح يعرف بالمشرق الإسلامي بحدود الربع الأول من القرن السابع الميلادي، فضلا عن وذاك فقد أقبل أهالي هذه البقاع الواسعة برحابة صدر على تعلم لغة الفاتحين المسلمين ـ العربية ـ ومن ثمّ المشاركة الفاعلة في النهضة الإسلامية بتعلم العلوم العربية والإسلامية ثم الإسهام في التأليف والبحث سواء أكان ذلك في تأليف المصنفات الفذّة باللغة العربية والنحو العربي والمعجم اللغوي العربي أم التصنيف في العلوم الدينية في الحديث الشريف والفقه والتفسير والتاريخ وغير ذلك.

والحال مع الجهة الغربية (الغرب) مختلفة تماما، حقيقة أن معارك اليرموك وأجنادين وغيرهما قد زوّدت الفاتحين المسلمين زخماً من الإنتصار إلى طرد الجيوش البيزنطية الضخمة من بلاد الشام غرباً ومن جزر البحر المتوسط ومن شمال أفريقيا إلى ما وراء الساحل المتوسطي الملاصق لأوربا (الغرب)؛ وأن الفاتحين المسلمين قد أنجزوا نصراً مؤزّراً في الجزيرة الإيبرية التي صارت فيما بعد تكوّن الأندلس الإسلامية. إلّا أن الفتوح الإسلامية لم تستمر بالهمّة والعزيمة نفسها، ولم تستطع

---

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٥٤-٦٥٥.

حميد الله، المصدر نفسه، ص ٧٦-٧٧.

إسقاط بل إلغاء مصطلح الغرب برمته، كما هو الحال في المشرق، ليحلّ تعبير الغرب الإسلامي بدلاً من الغرب مثلاً. وأن الخطّ الأحمر أي خطّ وادي بواتيه (بلاط الشهداء) وخط المضيق الرابط بين البحر الأسود والبحر المتوسط كان أن أصبح بالفعل هو الخطّ الموافق، وربما المتفق عليه، بين الطرفين الإسلام والغرب للفصل بين قطّاع القسطنطينية شرقاً مروراً بأوربا الوسطى غرباً حتى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا. وحقيقة أن هذا الخطّ الأحمر قد شهد تذبذبات في عدد من الأحايين وتغلغلاً كبيراً متمثلاً بحركة الاسترداد الأوربي Reconquesta ولكنه كان خطاً فاصلاً بين الشرق والغرب في الجوانب الدينية والسياسية والعسكرية والإجتماعية والديموغرافية وفي الغالب في الجوانب الحضارية.ولهذا فقد شكّل هذا الترتيب الجيوبوليتكي بين الطرفين (الإسلام × الغرب) أزمات سياسية وعسكريةً منها المحاولات الفاشلة تارة والناجحة تارة أخرى من قبل الغرب في استعادة السطوّة والهيمنة ثانية على عواصم وثغور بلاد الشام على الساحل المتوسطي وفي الجزيرة الفراتية نظير:- حروب الفرنج التي نجحت في التوغل عكسرياً داخل البلاد الإسلامية وتأسيس ممالك صليبية في عموم بلاد الشام، وكذلك في العمليات الاستردادية للأندلس. ومع كل ذلك فقد بقي الساحل الأفريقي بمعزل تقريباً عن أي تغلغل عسكري استيطاني كالذي حدث في بلاد الشام، كما ظلت عاصمة البحر المتوسط الواقعة على الساحل الأوربي بعيدة عن توغل عسكري إسلامي قبل الفتح العثماني. في حين مثّلت جزر البحر المتوسط ولاسيما صقلية منطقة تلاقي وتلاقح حضاري بين الطرفين.

وعلى الرغم من ذلك فهذه الأزمات والحروب لا تعني أن حالات العداء والتوتر هي السائدة ولا تظهر بجلاء عداء وحدة وتوتراً بين الإسلام والغرب، وهي أيضاً لم تؤد بالضرورة إلى صراع وتصادم حضاري دموي كالذي كان يقع في ميادين المعارك. إن التاثير والتأثر الحضاريين شيء والحرب والقتال وسفك الدماء شيء آخر. فالصليبيون ـ على سبيل المثال ـ كانوا ينتصرون حيناً ويندحرون حيناً آخر غير أن التلاقح الحضاري الإيجابي والمتجاوب عبر هذه الحروب وعبر التجارة والتبادل البضائعي ظلّ فاعلاً ومستمراً بشكل ثابت ولا سيما أن هناك فراغاً حضارياً واضحاً في أحد الجانبين المتحاربين ألا وهو الغرب. ومعروف حضارياً أن هذا الغرب شاء أم أبى كان عليه أن يقلّد أو يتأثر أو يتشكّل تشكّلاً كاذباً أو صادقاً بما أبدعه العقل الحضاري للآخر ـ الإسلام ـ المتفوّق. ومعروف أيضاً أن المجتمع الإسلامي العربي،

في هذه المرحلة الممتدة من القرن التاسع الميلادي فصاعداً حتى الغزو المغولي لبغداد عام ١٢٥٨م، وما بعد ذلك في بلاد الشام ومصر كان متفتحاً ومتفوقاً حضارياً بشهادة الغربيين أنفسهم نظير هونكه ويونغ وديورانت وغوستاف لوبون ومايرهوف[(١)] وغيرهم كثير.

من هنا فإننا لا نرى مصداقية بعض الآراء التي ترسم صورة تاريخية للعداء الإسلامي للغرب؛ فالمستشرقة الإسرائيلية حافا لزروس يافا المهتمة بالدراسات الإسلامية قد ذكرت في كتابها (الإسلام ـ خطوط عريضة)[(٢)] : ((في الوقت الذي رفض فيه الإسلام العالم الغربي وكل قيمه، فإنه ـ أي الإسلام ـ يأخذ منه ـ الغرب ـ اهتمامه السياسي"[(٣)]. فالإسلام والمسلمون لم يرفضوا الغرب كما لم يقفوا ضدّاً من منجزاته الحضارية، سواء أكان ذلك في مدد الأزمات في أثناء هجمات البيزنطيين على المدن الساحلية الشامية أم بعض المدن في الجزيرة الفراتية أم خلال المعارك الطاحنة بين الجيوش الصليبية والجيوش الإسلامية خلال قرون عدّة أم في أعقاب ذلك من معارك وحروب كونية، فالعلاقات الحضارية ـ كما أشرنا ـ شيء والمعارك والحروب شيء آخر.

إذن في الوقت الذي تلاشى فيه وجود الإمبراطورية الساسانية نهائياً عن مسرح التاريخ والحضارة فقد ظلّ الغرب يمرّ بمرحلة من الفراغ والسبات الحضاري الذي

---

(١) الطبري، المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٥٥.

(٢) هونكه، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوربا، نقل فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، ١٩٨٠، ط٤، ص١٤.

يونغ، لويس، العرب وأوربا، ترجمة ميشيل أرزق، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩، ص١٢٠، ١٢٥.

وات، مونتغمري، تأثير الإسلام على أوربا في العصور الوسطى، ترجمة، عادل نجم عبو، الموصل، ١٩٨٢، ص ٤٥.

ديورانت، ويل، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، ١٩٦٧، ط٢، ج١٧، ص١٧، ١٨.

(٣) حافا لزروس يافا، الإسلام، خطوط عريضة، تل أبيب. وزارة الدفاع، ١٩٨٠، نقلاً عن محمد جلاء إدريس، الاستشراق الإسرائيلي في العبرية المعاصرة، القاهرة، ٢٠٠٣، ط١.

أعقب مرحلة الإمبراطورية. فالعالم العربي الذي تحوّل إلى دولة جوار مع الإسلام انقسم على كتلتين دينيتين ـ سياسيتين هما الكنيسة الكاثوليكية المتمثلة بساحل البحر المتوسط وإيطاليا وفرنسا، والكتلة الشرقية، الكنيسة الشرقية البيزنطية التي تعدّ البقيّة الباقية من الإمبراطورية البيزنطية السابقة. وكان كلاهما يمرّان بمرحلة الحاجة والفراغ الحضاري تلك التي امتدت طويلاً عبر العصر الكنسي والعصور الوسطى، المظلمة، وهي المرحلة التي كانت فيها العقلية الغربية تواجه محناً وضروباً من الإضطهاد والقمع لأي شيء حداثوي وجديد حتى وإن كان الأمر يتعلق مثلاً بشكل الكرة الأرضية أبيضوي هم أم دائري أم غير ذلك؟، أو بوضع هذه الكرة الأرضية من الكون. وعلى هذا الأساس فإن الحملات العسكرية على الثغور والعواصم الإسلامية التي في الواقع تعد رد فعل لانتصارات العرب المسلمين في بلاد الشام لم تحمل معها ـ كما هو متوقع ـ مؤثرات حضارية إلى الشرق كما أدّته الحملات العسكرية الإمبراطورية للإسكندر وأباطرة روما الذين عمدوا إلى أن يرافقهم مفكرون بارزون في الفكر اليوناني إما بهيأة مؤرخين أو جغرافيين أو فلاسفة، وفي الذهن أسماء لامعة كهيرودتس وسترابو وبطليموس وإفلاطون. قبالة ذلك فإن العرب المسلمين الخلفاء منهم والقادة في عملياتهم العسكرية المضادة للتحرشات الغربية هي الأخرى كانت عسكرية محض مهمتها الردّ والدحر العسكريين في المناطق المنتزعة عسكرياً. هنا وبخلاف حملات الأسكندر لم يولي الخلفاء أهمية إلى العنصر الحضاري من وراء هذه الحملات ولم يعمدوا الى مرافقة عناصر تمثّل العقلية العربية المتطورة آنذاك معهم. مع أن هناك الكثير من الأدلّة التاريخية في العصر العباسي تؤكد أن الخلفاء قد أدخلوا في معاهداتهم التي تعقب الحروب فقرات مؤثّرة في التأثير الحضاري كفقرة جلب الكتب الفلسفية اليونانية مقابل إطلاق سراح الأسرى البيزنطيين أو فقرة السماح لبعض العلماء والفلاسفة بالتفرغ العلمي في بغداد مقابل الصلح مع الغرب أو تبادل الهدايا وزيارة الوفود من الجانبين وهكذا. . .

غير أن هذا لا يعدم نهائياً ما هيأته الحروب من مجالات للحوار وتبادل الآراء والتبادل الحضاري إذ يذكر المؤرخون بين الحين والآخر روايات تعبّر عن أصداء حضارية كالوفود المتبادلة بين الروم وأبي جعفر المنصور والرشيد والمأمون والمقتدر. ولا أدلّ على ذلك مما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه المعروف (تاريخ بغداد)، إذ يروي أن مدينة بغداد السلام قد صوّرت لملك الروم بأرضها وأسواقها وشوارعها

وقصورها وأنهارها غربيها وشرقيها فكان إذا شرب ـ ملك الروم ـ دعا بالصور فيشرب على مثال شارع سويقة نصر بن مالك ويقول: لم أر صورة شيء من الابنية أحسن منه كذلك تحدثنا الرواية عن الساعة العجيبة التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان التي أثارت إعجاب هذا العاهل بالتقدم العلمي للمسلمين في علم الميكانيكا[١]. والرواية عن وفد الروم إلى الخليفة المقتدر بالله في قصره المعروف بقصر التاج وإعجاب الوفد بما شاهده. واعتماداً على قول المؤرخ الصابي الذي يقول: ((فشاهد من الأمر ما هاله))[٢]. ولاسيما حينما دخل الوفد دار الشجرة (نسبة إلى شجرة من الفضة وضع عليها أطيار مصوغة من الفضّة تصفر على وفق حركات قد جعلت لها فكان تعجّب الرسول ـ الوفد ـ من ذلك أكثر من تعجّبه من جميع ما شاهده. كذلك فإن الوفود التي كان الخلفاء يشكّلونها عندما تحسم مسائل تبادل الأسرى بين المسلمين والروم إذ كانوا يولّونها أهمية بضمّ عدد من العلماء في علوم القرآن والحديث الشريف إليها. واللافت عن وفود هارون الرشيد كانت ذا مواصفات علمية إذ إنه لم يغفل وهو في ميدان المعركة مسألة الحصول على كتب العلوم القديمة من أنقرة وعمورية، وإنه عين يوحنا بن ماسويه المشهور مسؤولاً عن ترجمة الكتب الطبية التي جلبت من عمورية وأنقرة وسائر بلاد الروم. أيضاً فإن الوفد الذي ألّفه الخليفة المأمون كان من علماء بيت الحكمة البغدادي إلى ملك الروم للغرض نفسه.فيذكر ابن نباتة في كتابه (سرح العيون) أن المأمون ولّى سهل بن هارون كاتباً على خزائن الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نقلها من جزيرة قبرص[٣].

فحالات التوتّر السياسي والعسكري بين الطرفين، الإسلام والغرب، لا يفهم منه أنها إعلان حال القطيعة الحضارية التامّة أو حال الحصار المطبق إزاء مرور أو انتقال عناصر حضارية متنوعة مادية منها أو فكرية. والأمر نفسه ينطبّق على قرون الحرب وسفك الدماء وتدمير المدن والقرى الزراعية التي استحوذت على أحداث حقبة الحروب الصليبية. هناك تأثيرات واضحة المعالم وفي شتى الصعد على المتورطين من الغربيين في هذه الحروب سواء أكان ذلك معبّراً عنه في مكاتباتهم مع ذويهم أم عبر انطباعاتهم وممارساتهم الحياتية عند عودتهم إلى بلدانهم بعد انتهاء الحروب.

(١) المصدر نفسه.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مطبعة السعادة، ج١، ص ٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ١٠١.

ودون مبالغة فقد كانت العقلية العربية الإسلامية متفتحة للغرب بشكل مباشر أو غير مباشر فيحدّثنا ابن سعد في طبقاته الكبرى أن النبي كان يشجع الصحابة من قرّاء القرآن الكريم على تعلّم لغات الغرب فيذكر أنه دفع الصحابي زيد بن ثابت إلى تعلّم السريانية إذ قال له: ((يأتيني كتب من أناس أحبّ أن يقرأها أحد،.فهل تستطيع أن تتعلّم الكتابة العبرانية أو قال السريانية، فقلت نعم))[1]. فضلاً عن هذا فإن عملية التعريب، تعريب النقود والدواوين، قد شجعت عبد الملك بن مروان على الاعتماد على الأشخاص الذين كانوا يجمعون بين اللغة العربية أو اليونانية أو القبطية. مع أنه وبمرور الزمن ومن خلال توسّع مشروع التعريب صار ضرورياً توسيع النخبة المفكّرة في إنجاح هيكلية المشروع اللغوي الحضاري في عهد العباسيين؛ إذ تفتّحت العقلية الإسلامية إلى استثمار هذة الأداة في تعريب العلوم بما كانت الحاجة إليها ماسّة في توسيع المدارك العلمية في ميادين الفلسفة والمنطق والطب والعلوم المحض فكانت بداية الترجمة والنقل من الغرب على نطاق واسع في هذا العصر حتى وصلت ذروتها في زمن الخليفة العباسي المأمون. وهنا نجد أيضاً العقلية العربية الإسلامية قد عرضت وتبنّت بثبات مبدأ التسامح في الإندفاع نحو علوم اليونان القديمة التي كانت تمثّل بحق العقلية الغربية إبان نهضتها ورقيها حتى وإن كانت عقيدياً معارضة لما كان يؤمن به ويعتقد به المسلم. إن همّ المسلمين الوحيد والأساس كان التعرف على الآخر وتقدمه والأخذ من علومه وقراءتها والتمعن بها ثم هضمها دون أن يفقدوا توازنهم العقلي وأصالتهم الفكرية المستوحاة من الإسلام والقرآن الكريم والسنّة النبوية. فتمثّل العلماء المسلمون نظريات اليونان والرومان تمثلاً حصيفاً ثم بعدئذ أدخلوا عليها من خبراتهم وموروثاتهم وتجاربهم الحضارية فنجم عن هذا المزيج العلمي بين العقليتين المتحاورتين حصيلة ونماذج رائعة في مبادىء الإعتزال وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية والمنطق والطب والصيدلة والكيمياء والرياضيات والفلك والجغرافية وغير ذلك. مقابل هذه النهضة الإسلامية الفاعلة كانت العقلية الغربية المعاصرة آنذاك تقف على الضدّ تماما، إذ وضعت الكنيسة ورجالها ومفكرو العصور المظلمة حواجز وأسيجة حديدية حيال أي نظرية متطوّرة وكان من الصعوبة بمكان إختراق تلك الأسيجة على كل ما من شأنه إلقاء ضوء من المعرفة الجديدة أو أي إشعاع فكري وعلمي. كان بالفعل عهد ظلام وتخلّف هو السائد في الغرب. وعلى هذا الأساس

(١) الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج١، ص ١٠٢.

أضطر المسلمون الى التعامل مع العقلية الغربية القديمة - اليونانية والرومانية - لأن العلماء المسلمين أدركوا جيداً أنه لابدّ من الحصول على المعرفة من منابعها الأصلية وإن كانت وثنية العقيدة والمبدأ، فقد كانوا على ثقة وحصانة بفعل عقيدتهم وإسلامهم وقرآنهم. ولنأتي بمثال محدّد من الغرب نفسه لإعلان تلك الأوضاع الحضارية بين الإسلام والغرب. فيذكر ابن النديم وآخرون أن المأمون أوفد وفداً علمياً برئاسة رئيس بيت الحكمة (يسمى آنذاك أمين بيت الحكمة) (سلم) بزفقة عدد من رؤساء الأقسام العلمية في البيت وعلى رأسهم رئيس قسم الترجمة إلى ملك الروم، وذلك لأنه قد طرق سمعه بوجود خزين هائل من الكتب (العتيقة) قد وضعت في صناديق حديدية ودفنت تحت الأرض في سرداب. كانت مهمة الوفد الأساس إقناع عاهل الروم بالحصول على تلك الكتب، ويبدو أن الملك لم يكن لى إطّلاع بأمرها فاستشار مستشارية فأشاروا عليه أن يستفسر من أحد الرهبان ممّن كانت له معرفة واسعة بهذه الكتب المخزونة، وعند استفساره ردَّ الراهب بما يأتي "سيرها فإنك تثاب فإنها ما دخلت أمة إلا وزلزلت قواعدها"[1]. ومع استغراب عاهل الروم من الردّ، فقد أمر - دون أن يعرف القيمة الحقيقية لهذا المخزون المعرفي - أن لا يفوّت هذه الفرصة في التخلّص من سرّ هذه الكتب فسمح للوفد العراقي بنقلها إلى بغداد. وكانت هذه الكتب في الحقيقة هي كتب الحكمة والفلسفة والمنطق لأرسطو وغيره من فلاسفة اليونان الأفذإذ الذين حوربت نظرياتهم من قبل رجال الكنيسة. وهي الكتب التي كانت بالفعل تحرّك العقل وتنشّطه، فكانت تشكّل خطورة كبيرة آنذاك على العقلية الكنسية. فلم يدّخر الوفد وسعاً إلا بحملها على الجمال فوراً - حسب الرواية - والإنطلاق بها إلى بيت الحكمة. وحين وصولها أسرع العلماء والنقلة والمترجمون السريان أو ممّن كان يعرف اللسانين اللاتيني والسرياني على قراءتها وترجمتها وتفسيرها وشرحها دونما قيود وشروط بل بخلاف ذلك فقد تمّت ترجمتها مقابل أوزانها ذهبا وأموالا من الخليفة والمسؤولين.

وأنموذج آخر عن الوعي العلمي الإسلامي ذلك المتعلق بعالم الرياضيات المعروف (ليو) إذ طرق سمع المأمون أن هذا العالم قد توصّل إلى نظرية متطوّرة في الرياضيات فبعث إليه دعوة. لكن الملك رفض ذلك. ولم يستسلم المأمون نهائياً إذ عاود الطلب من عاهل الروم إعارة هذا العالم مدّة سنة أو سنتين وزنه ذهباً وسوف

(١) المصدر نفسه.

يعادل هذا الإجراء مقابل عقد معاهدة سلام بين الطرفين المتحاربين في سوح القتال[١].

هذان مثالان عن فحوى مسألة التفاعل بين الإسلام والغرب، وهما في الوقت نفسه يبيّنان بجلاء أن الإسلام كان يتوجه إلى الغرب توجّهاً حضارياً على الرغم من التوتّرات في العلاقات السياسية. وقد ظلّ هذا الإنفتاح الحضاري متواصلاً في تلقي علوم الغرب القديمة حتى بعد أن تمثّل العلماء المسلمون هذه العلوم وبرعوا فيها وتوصّلوا إلى نتائج علمية أصيلة في ميادين العلوم المحضِ. فلم يتخوفوا ولم يتطيروا مما كان يعتقد به أرسطو أو أفلاطون أو جالينوس[٢]، ولم يهربوا من نظرياتهم وعلومهم بوصفها وثنية وغير إسلامية؛ إنّما أقبلوا عليها بنهم وتطلّع على إنجازات الآخر ونظرياته العلمية إقبالاً ذاتياً وحضارياً لا بهدف من الآنوية بالضدّ من الآخر إنّما بهدف محاورة (الأنا) مع (الآخر) وصولاً إلى المطلوب الحضاري البنّاء.

فلقد فشلت الكنيسة والسياسة في فرض أسيجتها الحديدية على الأفكار والمعارف والعلوم، فالمسألة سهلة وميسورة في حصار إقتصادي أوعسكري مثلاً غير أنه من العسير جداً أن يفرض حجزاً وحصارا على مناهل النور والحضارة. وبناء على هذا فقد أقبلت العقلية الأوربية الوسيطة بسبب ديني أو علمي أو شخصي أو بجميعها مجتمعة على الإنفتاح والتلقّي من الحضارة الإسلامية. وبدأ الغرب يتحرك بسرعة عبر جزيرة صقلية والأندلس على التعرف على الآخر (الإسلام) عبر وسيلة الترجمة والإستعراب والتأثر غير المباشر كالإستشراق أومن خلال ما قام به الفونسو الحكيم ومن خلال مدرسة طليطلة في عهد ملوك الطوائف وفي عهد ملوك الإسبان وعبر قرطبة وإشبيلية ومالقة أقبل العلماء الغربيون ينهلون من العلوم الإسلامية بنهم شديد[٣]. فكان جيرارد الكرموني الإيطالي الذي وفد إلى طليطلة وظلّ متفرغاً لتعلّم اللغة العربية والترجمة مدّة طويلة كانت حصيلتها أن ترجم بمفرده من اللغة العربية إلى اللاتينية أكثر من سبعين

(١) أبن النديم، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، ص ٣٠٤.

القفطي، جمال الدين، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، ١٣٢٦هـ، ص ٢٣-٢٤، ٣٨٠.

(٢) أبن نباته، جمال الدين، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، القاهرة، ١٩٦٣، ط٧، ص ٢٤٢.

(٣) أبن سعد، المصدر السابق، ص ١١٥.

كتاباً في ميادين الفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك والطب[١]. وكان أيضاً مايكل سكوت يعمل في بلاط فردريك الثاني ملك صقلية ليتعلم اللغة العربية، وانصرف همّه إلى ترجمة الكثير من كتب أرسطو بشروح الفيلسوف ابن رشد[٢] كذلك فتحت مدن الأندلس أبوابها أمام العشرات من طلبة العلم الغربيين لتعلّم ودراسة العربية وعلومها، فقد أرسل ملك بافاريا فيليب مثلاً بعثة مؤلفة من مائتي طالب درسوا العلوم، وقد اعتنق بعضهم الإسلام[٣]. وشجع ملوك فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وهولندا إرسال البعثات من الطلبة إلى الأندلس نظير:- الوفد الذي بعثه ملك ويلز المؤلف من عشرين فتاة إلى أشبيلية مع رسالة منه يشيد فيها بالواقع العلمي للإسلام. ومما أورد الملك جورج في رسالته هذه قوله: ((سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه معاهد العلم والصناعة في بلادكم العامرة، فأردنا لابنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل))[٤] في الوقت نفسه فقد عمد بعض ملوك الغرب إلى دعوة العلماء المسلمين المتميزين لنشر العلم في الغرب ولتأسيس معاهد علمية فيشير أحد الباحثين الى أن ملوك سكوبيا وانجلترا وهولندا قد دعوا في مختلف العلوم وممن كان يحسن اللسانين اللاتيني والأسباني[٥] ودعا ملوك الغرب مائتي خبير من العالم الإسلامي في صناعات الزجاج والبناء وبناء السفن وفي الزراعة والفلاحة. واعتمد ملك إنجلترا على خبرات هندسية عربية أيام الخليفة هشام الأول بن عبد الرحمن الداخل الأندلسي في إقامة جسر على نهر

---

(١) أبن النديم، المصدر السابق، ص ٣٠٤.

القفطي، المصدر السابق، ص ٢٣-٣٤.

(٢) مصطفى، شاكر، دولة بني العباس، الكويت، ج٢، ص ٣٤٠.

(3) Macsay, M. Spain in the Middle Ages, London 1977, P. 197, 198.

Doinburlh, John. Arabs:- Element of Supremacy in the Midival Centuries.

مايرز؛ يوجين: الفكر العربي والعالم العربي. ترجمة كاظم سعد الدين، بغداد، ١٩٨٦، ص ٦٥، ٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٢، ١٠٩، ١١٠.

بدوي، عبد الرحمن، دور العرب في تكوين الفكر الغربي، الكويت، ١٩٧٩، ط٣، ص ٥-٦.

مظهر، جلال، أثر العرب في الحضارة الأوربية، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٥٧.

(٥) مايرز، المصدر نفسه، ص ١٠٩، ١١٠.

التايمس وكان يعرف بجسر هيليجم أو هيليشم تحريفاً لاسم هشام[1].

لقد أقبل الغرب ـ ساسة وطلبة علم ـ على مراكز الإشعاع والإلتقاء الحضاري في حواضر الاندلس وصقلية لاعتماد مناهج للبحث والتأليف والتعلم كما اعتمد العلماء المسلمون المناهج العلمية نفسها في بداية مراحل الترجمة والتأثر. إلا أن المؤسسين لهذه العلمية المؤثرة والمهمة في التعريب من الغربيين ولاسيما من ممثلي الإتجاه الكنسي كانوا غير متسامحين وغير منفتحين كما هو الحال في تسامح العلماء المسلمين إزاء العلوم الإسلامية ولا سيما تلك التي تتضمن توجّهات دينية عقيدية، صحيح أنهم توجهوا لترجمة القرآن الكريم منذ مدة مبكرة من هذه المرحلة التاريخية وصحيح أنهم توجّهوا لدراسة وقراءة مؤلفات السيرة النبوية والحديث النبوي الشريف والتاريخ الإسلامي غير أنه توجه يسوده عنصر تعصبي هادف، إذ أقبلوا على دراسة وترجمة هذه العلوم العقلية منغلقة متشككة تعمل في الضد من الإسلام. وقد تبلور هذا الموقف المتشنج والخطير في ذات الرقعة التي ترسّخت فيها أسس المنهج البحثي الإسلامي المنفتح، أسبانيا، البرتغال، إيطاليا. فقد انبرى عدد من رجال الكنيسة المتزمتين للكتابة العدوانية بقصد تشويه الإسلام ومبادئه وتشويه حياة الرسول وسيرته ويدفعهم في هذا التوجّه السلبي دافع ديني ألا وهو الخشية والتخوّف من أن يؤثر هذا التسامح الإسلامي في الغرب المنغلق ويشجع على الميل والتحول أو الإنجذاب الديني نحو الإسلام. ولذلك سارع هؤلاء الكتاب إلى تهيئة وصفات حاقدة وغير سليمة عن تاريخ الإسلام وعن الدين الإسلام، والأكثر خطورة أن هذه الوصفات الجاهزة أضحت بمرور الزمن مرجعية اعتمدت عليه العقلية الغربية العامّة والإستشراقية في رؤتهم عن الإسلام وفي تفسيراتهم وكتاباتهم ومواقفهم[2].

في الجانب الآخر لم تفلح العقلية الغربية الوسيطة الجامدة البقاء في منأى أو أن تحافظ على انغلاقها إزاء منجزات المسلمين العلمية والبحثية، لذلك فقد نشطت حركة واسعة جداً من الترجمة وشراء المخطوطات العملية العربية وأسهمت في نقلها إلى الغرب وترجمتها والإنتفاع منها في معاهدهم العلمية وفي شرحها وتفسيرها ودراستها.

---

(١) الباز العريني، المجتمع العربي، ص ١٦٣. التكريتي، المصدر نفسه، نقلاً عن كتاب دونيروث، العرب هم عنصر السيادة في القرون الوسطى، ص ٩٢-٩٣.

(٢) الباز العريني، المصدر نفسه، ص ١٦٣-١٦٤، التكريتي، المصدر نفسه، ص ٩١.

وهنا يبرز عنصر تناقضي علمي بإمكاننا موازنته بين المنهج الإسلامي والمنهج الغربي ففي الوقت الذي حافظ فيه العلماء المسلمون على الأمانة العلمية والصدقية في ذكر مرجعياتهم من المؤلفات اليونانية وترجمتها بأسماء مؤلفيها دون تحريف ودون انتحال نهض عدد من علماء الغرب إلى انتقاء المؤلفات العلمية العربية الرصينة فنقلوها إلى لغاتهم وسلخوا معلوماتها وانتحال تأليفها من قبلهم، يقول المستشرق غوستاف لوبون في حضارة العرب ما يأتي)) : لم يظهر في أوربا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالماً لم يقتصر على استنساخ ما في كتب العرب، فعلى كتب العرب عوّل روجر بيكون وليونارد البيزي وآرنولد الفيلانوفي وريمون لول وسان ثوما والبرت الكبير. ولم تظهر العبقرية الأوربية الخلّاقة إلّا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر))[1]. فنسبت نظريات الخوارزمي في الجبر والمقابلة الى جيرارد الكرموني وليونارد البيزي، ونسب روجر بيكون ـ الذي تعلّم العربية ودرس العلوم العربية ـ المنهج التجريبي إلى نفسه بينما هو في الأصل يرجع الى العالم جابر بن حيان. والمعروف أنه قد تعلّم العربية على يد أستاذه روبرت جروستت الذي طاف الأندلس سعياً وبحثاً وراء المؤلفات الإسلامية في الكيمياء واليه الفضل في نقل تلك المؤلفات إلى بلاده ومن ثمّ استطاع روجر بيكون التعرف عليها[2]. فالرياضيات قد انتقلت إلى أوربا بعد ترجمتها إلى اللاتينية أو لغات عربية أخرى. إذ ترجم كتاب الحساب للخوارزمي إلى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر للميلاد وما زال النصّ اللاتيني للكتاب موجوداً في الوقت الذي ضاع فيه الأصل العربي. وكان لكتاب الجبر والمقابلة تأثير كبير في الغرب حتى القرن السادس عشر، وقد ترجمه إلى اللغة اللاتينية روبرت أوف تشستر، وصارت هذه الترجمة هي المعوّل عليها عند العالم الرياضي ليوناردو

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) عاشور، سعيد عبد الفتاح، "التعليم العالي في العصور الوسطى ـ دراسة مقارنة بين العالمين الإسلامي والمسيحي" ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٧، ص ٤٤٠، ٤٨٠، ٤٨١.

لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ص ٦٧٨: جلال، المصدر السابق، ص ١٩١ وقد اعتمده في هذا على رأي الدكتور إبراهيم بيومي مدكور في الفصل الذي كتبه في كتاب اليونسكو (أثر العرب والإسلام في أوربا) القاهرة، ١٩٧٠، حول الفلسفة، ص ١٦٦.

أوف بيزا[1] والمتعارف عليه أن أصل تسمية (Algebra) عربي مشتق من الجبر وأن تسمية Al-Gebra مشتق من الخوارزمي[2]. فضلاً عن ذلك فإن تأثير كل من الخازن الرياضي وحامد بن الخضر الفلكي كان واضحاً في فتح الآفاق أمام المعنيين من الغرب في علوم الهندسة والحساب. ووجدت لعلوم وأبحاث جملة من العلماء المسلمين طريقها إلى اوربا في علوم النبات والحيوان والمعادن إذ أنارت مؤلفات الدمشقي وأبي حنيفة الدينوري وابن وحشية وابن بصّال وابن البيطار عقول علماء الغرب.ولعله من الصواب القول بأن مؤلفات العالم الحسن بن الهيثم في القرن العاشر الميلادي في البصريات والمرايا الكروية قد ألهم روجر بيكون وكبلر في تجاربهما. كما أن لابناء موسى بن شاكر تأثير واضح في رقي علم الهندسة في الغرب، فكان لمؤلفهم (كتاب معرفة مساحة الأشكال)[3] دورا في نهضة العقلية الغربية بعد ترجمته الى اللغة اللاتينية من قبل جيرارد الكرموني بعنوان (أقوال موسى بن شاكر). كما أثروا على علماء أمثال فيبوناشي Fibonacci ونيمورا ريوس Nemorar وروجر بيكون في معرفة برهان الفرضية الأولى الخاصة بالدائرة. وأضاف العلماء المسلمون في علم الكيمياء إضافات مهمة معتمدين على التجربة والدربة، واكتشاف الماء الملكي وحامض النتريك وأملاح الأمونيا ونترات الفضة وكلوريد الزئبق وعملية التقطير[4].

كانت ترجمات حنين بن إسحاق العبادي لمؤلفات جالينوس الطبية ومؤلفات أرسطوطاليس وغيرهما من حكماء اليونان قد انتقلت إلى الغرب عن طريق الأندلس بعد أن أعيد ترجمتها إلى اللغة اللاتينية. كما كانت لنقولات قسطا بن لوقا البعلبكي في النجوم والمنطق والهندسة والعلوم الطبية من اليونانية والسريانية إلى العربية أمثال

---

(١) برونوفسكي، أرتقاء الإنسان، ترجمة موفق شخاشيرو، الكويت، طبعة المعرفة، ص ١٢٣.
باسات، حيدر، إسهام المسلمين في الحضارة، ترجمة ماهر عبد القادر، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ٥١، ٦٧.

مايرز، المصدر السابق، ص ٩٨: ديورانت، المصدر السابق، ج١٧، ص ١٨.

(٢) فيرنيه، جوان، الرياضيات والفلك والبصريات" بحث ضمن كتاب تراث الإسلام، عدد ١٢، ص ١٦٨-١٦٩.

(٣) فروّخ، المصدر نفسه، ص ٢٢٧.

(٤) جورافسكي، الكسي، الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف محمد جرادة، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٦٥، ص ٦٧: الباز العريني، المصدر لاسابق، ص ١٥٣.

شروح الإسكندر الافروديسي[1] ورسالته (في الفصل بين النفس والروح)[2] قد انتقلت هي الأخرى إلى الغرب بعد ترجمتها إلى اللاتينية. كما نقل كتابه الآخر (المدخل إلى علم الهندسة)[3] وكان على هيأة أسئلة وأجوبة. ويصفه ابن صاعد الأندلسي بأنه "لا نظير له"[4] وكتابه الآخر (المرايا المحرقة)[5] وكتابه (العلّة في أسوداد الحبش)[6] عن تأثير الحرارة والأمطار والبيئة على عادات الناس. ويعدّ مؤلفه (المدخل إلى المنطق)[7] و (شرح مذاهب اليونانيين)[8] من المؤلفات الفلسفية المهمة التي نقلت إلى الغرب. وانتقلت مؤلفات ثابت بن قرة الحراني في (رسالة في الرسوم والفروض والسفن)[9] كتبها بالسريانية إلى اوربا. وقد شهرت ترجمة الحجّاج بن يوسف بن مطر الكوفي لـ (كتاب المرآة لأرسطو) وكتاب (أنولوجيا أرسطو)[10] في الغرب. وترجمته كتاب لإقليدس، وكتاب لبطليموس (المجسطي) وكان مؤلفاً من ثلاث عشرة مقالة، وهو اول من عني بتفسير هذا الكتاب وإخراجه إلى العربية وانتقل في ما بعد إلى الغرب[11]. وكان دور العلماء المسلمين في الزراعة معروفاً، فقد أثروا على أوربا لأنهم أخضعوا علم النبات للتجارب بهدف تحسين أنواع النباتات، وقد برع عدد من المهندسين الزراعيين في أسبانيا فقد وضعت تحت تصرفهم الحدائق لإجراء التجارب على النباتات المحليّة والأجنبية وكانت أول حديقة لهذا الغرض قد تأسست في

---

(١) أبن صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، مطبعة السعادة، ص ٤١.

(٢) أبن النديم، المصدر السابق، ص ٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه، الفهرست، ص ٣٥٣: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٤، ص ٩٨-١٠٣.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) البيهقي، ظهير الدين، تاريخ حكماء الإسلام، دمشق، ١٩٤٦، ص ١٧٣-١٧٤.

(٩) أبن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت، ص ١٩٩، ٢١٠.

(١٠) أبن النديم، المصدر السابق، ص ٣٢٥، ٣٢٧.

(١١) المصدر نفسه.

طليطلة في القرن الحادي عشر للميلاد[١] وتبعها تأسيس حدائق أخرى في أشبيلية[٢] كان هذا معروفاً عند العلماء المسلمين في الوقت الذي لم نسمع عن أي حديقة لإجراء التجارب في أوربا حتى عام ١٥٤٥م[٣]. وقد ترجم عدد من مؤلفات الزراعة وفن التشجير وإدارة الأراضي الزراعية إلى اللغة الأسبانية ومن بين أهمها كتاب الفلاحة لأبي زكريا يحيى بن محمد المعروف بابن العوام[٤].

واستقطبت بلاد الأندلس أنظار الأوربيين فيذكر عن البعثات العلمية قد نشطت من أرجاء القارة الأوربية لدراسة العلوم والفنون والصناعات، أهمها ثلاث بعثات هي البعثة الفرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث ابنة خال لويس السادس عشر ملك فرنسا، والبعثة الإنجليزية، والبعثة الإسبانية[٥].

وأخيراً فإن عدداً من علماء الغرب قد أكد فضل الإسلام على أوربا مشيدين بالصرح الحضاري للإسلام، وأن النهضة الأوربية في الغرب لم تكن لترتقي لولا إسهام الإسلام. فالمؤرخ والشاعر الفرنسي روبير بريفو يذكر في كتابه (الشعراء التروبادور) أن أوربا كانت خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر متجّهة إلى الإسلام تبحث عن الجديد في الصناعات والعلوم والفنون الخاصة بالملاحة. ويضيف قائلا : كان الغرب متوجّهاً صوب العالم الإسلامي للبحث عن آثار أرسطو وابن سينا وابن رشد في علوم الفلسفة والمنطق والفلك، والأهم أن الكنيسة نفسها قد أولت اهتماما إلى هذا العالم لإقامة صرح الفكر المدرسي[٦]. ويذكر برونوفسكي في مؤلفه (إرتقاء الإنسان) أن العمليات الحسابية كانت متعة لا نهاية لها بالنسبة إلى العلماء العرب المسلمين، حتى إن ولعهم في الرياضيات قد دفعهم إلى تحويل هذه الطرق إلى

---

(١) يونغ، المصدر السابق، ص ٦٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) التكريتي، المصدر نفسه، ص ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣.

(٦) أثر العرب في الإسلام في النهضة الأوربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٧٠، فصل في الطب والاقرابينين ص ٢٩٠-٢٩٢ : بدوي، عبد الرحمن، دور العرب في التكوين الاوربي، ص ٦-٧.

أجهزة ونماذج ميكانيكية فظهر الحاسب الفلكي وهو أداة أكثر ارتقاء من الإسطرلاب القديم وقد صنع هذا الحاسب في بغداد[1]. ويذكر المستشرق خوان فيرنيه ما نصه:- نحن مدينون للخوارزمي بمحاولة وضع تنظيم منهجي باللغة العربية لكل المعارف العلمية الذي يعني الترقيم، كما ندين له باللفظ الأسباني (غوارزمو Guarismo) الذي يقصد به الترقيم. ويضيف هذا المستشرق قوله:- بأن أوربا أخذت عن الخوارزمي كتابه الأعداد على أساس المنازل (الخانات)، وبحلول نهاية القرن التاسع الميلادي عرف الغرب هذه الطريقة كما يتبين في مخطوطات مختلفة وجدت في أوفيدو Oviedo وهي محفوظة الآن في مكتبة الاسكوريال[2].

وختاما فلعل هذا العرض التاريخي والحضاري السريع يسلّط الضوء على واقع العلاقات بين الإسلام والغرب وعلى تواصل حوارهما الحضاري على الرغم من تصارعهما العسكري. إنه حوار من جانب الإسلام المتفوّق حضارياً من غير استعلاء وغطرسة وتكبّر بعالميته التي ـ وحسب قول المستشرقين ـ لولاها لما تحركت عجلة النهضة الأوربية الحديثة. وحينها استفاق الغرب ليفرض هيمنة حضارية، فحضارته ـ كما يرى المنظّرون الغربيون ـ أرقى الحضارات، وجنسه (الذي عرف بالوحش الأشقر) هو أرقى الأجناس، ومع ذلك فإن العالمين الإسلامي والعربي حتى هذه الساعة لا يعرض إلا أسلوب التحاور والتجاوب البناء مقابل أسلوب القوة والبطش والعولمة من الجانب الآخر.

(١) فيرنيه، المصدر السابق، ص ١٦٨-١٦٩.

(٢) برونوفسكي، المصدر السابق، ص ١٢٣: هونكه، المصدر السابق، ص١٥٧، ٢٥٩.